منهجية الشك والتمحيص عند العلامة ابن خلدون

د. شتاتحة أم الخير أ. بن عزوزي محمد
مركز البحث في العلوم الاسلامية والحضارة الأغواط- الجزائر

ملخص باللغة العربية:

لقد كان همّ كبار المؤرخين قبل ابن خلدون نقل الأخبار والروايات، وتسجيلها بدقة، وتحصيل مادة وفيرة منها، تعين على تصوير الماضي تصويرا أمينا وواضحا، يجعل قراءته مفيدة والعبرة منه أكيدة، وإذا كان للمؤرخين القدامى الفضل في النقل وغزارة المادة التي صنفوا منها كتبهم، فان ابن خلدون قد أضاف لذلك فضلا آخر، ظهر من خلال تفريقه بين التأريخ وفلسفة التاريخ أو التاريخ التحليلي، وتساؤله الدائم عن علل الحوادث والوقائع وأسبابها، ومحاولته الوصول إلى اجابات منطقية مستمدة من معرفته بطبائع العمران البشري، متجاوزا في ذلك المنهج الشائع، لتبيان كيفية تجنب المغالطات التاريخية والتحيّزات الذاتية قدر الإمكان، رغم نسبية ذلك لنسبية العلوم الإنسانية في حد ذاتها.

Summary in English:

Senior historians before Ibn Khaldun major interest was to transfer news and novels, and recorded accurately, and collect the abundant substance of it, they had to film and portrayal the past honestly and clearly , that makes it useful to read lesson certain to learn from , and while historians veterans credited for the transport and the abundance of material that they classified their books , Ibn Khaldun had added to it as well as another, appeared through differentiation between history and philosophy of history or analytical history, and his lasting questioning on the ills of accidents and incidents and their causes, and his attempt to reach a logical answers derived from his knowledge Natures of human Urbanism, surpassing the common approach , to show how to avoid historical fallacies and self prejudices as much as possible, despite relativity to the Human sciences in itself.

مقدمة :

إن الذي لا يدرس الماضي لا يمكن أن يفهم حاضره، ذلك أن دراسته لا تعني مجرد إحياء له فقط بقدر ما تمثل أرضية صلبة يمكن الانطلاق منها لفهم ما يحيط بنا، ذلك الماضي الذي مازالت بصماته حاضرة وإن اختلفت دلالاتها الحالية من مجتمع لآخر، فلكل زمان وعصر مخياله الاجتماعي الخاص به ومنابع قيمه، حافزه الأخلاقي، رموز ودلالاته التي يتحدد بها عالمه، فإذا كان المعنى عند البدائي يرتكز على الأصل- البدايات الأولى الأسطورية التي تضفي على عالمه الراهن مغزاه وقيمه- فالإنسان المعاصر يبحث عن المعنى ليلقاه بكدّ يده و نشاط وعيه، أما معايير زمننا فتصنعها الذات الاجتماعية، وكما يقول **دومون**:" كان القدماء يعتقدون أنهم ورثة الأسطورة أما نحن، فإننا نعلم أن الإيديولوجيا من صنع هذه الذات" .[1]

فالإنسان دائم الاهتمام بالتعرف على البيئة وطبيعة الظواهر التي تحيط به، ويلتمس الأسباب الطبيعية للأشياء والموضوعات ما دام ذلك ممكنا، وهو في ذلك يستخدم منهجا.

وما من شك حين نتحدث عن المنهج أن لا نتكلم عن أشهر من كان له باع طويل فيما يتعلق بذلك - إضافة إلى التراث الحديثي والأصولي السابق له- وهو العلامة ابن خلدون من خلال مقدمته لمنهج جديد، ونحت مصطلحات تكاد تكون موقوفة على منهجه، كمصطلح المطابقة بين العلل والأسباب الذي هو علم العمران البشري، والذي يعد بمثابة المحك في دقة وصحة كل ما يتعلق بالرواية التاريخية، وما يتصل بها من إرث مكتوب أو شفهي، وهذا الإرث العلمي والمنهجي لابن خلدون جعله محط الدارسين، لتصبح هناك دراسات متخصصة تسمى بالخلدونيات.

[1]- شمس الدين الكيلاني، **من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي**"الأسطورة- الدين- الايدولوجيا- العلم"، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط1، 1998، ص14.

وفيما يلي ذكر لأبرز النقاط المنهجية مما أجاد به العلامة ابن خلدون في منهجه التاريخي حول ضرورة الك والتمحيص لكل نص تاريخي يقع بين أيدينا أو يروى لنا أو ما شابه ذلك:

- **أولا: المنهج:**

لقد حاول الفكر الإنساني لفترات زمنية متعاقبة، البحث عن أساليب وطرق يستطيع من خلالها حل المعضلات والتوصل إلى نتائج يقينية، عن طريق المعارف العقلية والحسية، ووجد بعض الأفكار والطرق التي يمكن إطلاق طريقة أو منهج علمي عليها حتى وإن لم تكن سليمة النتائج كما هو الحال مع ما خلفته الحضارة اليونانية ممثلة بفلسفتها خاصة ما يتعلق بالحد الأرسطي، والذي كان لجما للسفسطائية الذين ينكرون الحقائق، ليتبنى هذه الطريقة في التوصل إلى اليقينيات النصارى، ثم لاحقا روما والقسطنطينية، إلى أن جاء الإسلام فظهرت طرق جديدة في التثبت والبحث، تعتمد على الاستقراء والتحليل، وهذا واضح في علوم المصطلح والأصول واللغة العربية، فأصّل هؤلاء لكل فن قواعد يمكن السير عليها، من أجل الوصول إلى نتائج مضمونة، ضمن منظومة علمية متناسقة، في شتى المجالات والفنون، فحتى المنهج الاسترادادي الذي اعتمد عليه الغرب في ما بعد، كانت بدايته الحقيقية من علماء المسلمين، وفي مقدمتهم **ابن خلدون** الذي أرسى قواعد بليغة في هذا المجال تعتمد على المطابقة بعد الشرط الثبوتي، وبعد عصر النهضة الإسلامي جاء دور النهضة الأوروبية، وكان ازدهار هذا العلم في القرن السابع عشر ميلادي، ومن أوائل من استخدم كلمة "علم المناهج" من الأوروبيين كان الفيلسوف الألماني **كانط** عند تقسيمه للمنطق إلى قسمين:

- مذهب المبادئ وهو الذي يبحث في الشروط والطرق الصحيحة للحصول على المعرفة.
- علم المناهج الذي يهتم بتحديد الشكل العام لكل علم وبتحديد الطريقة التي يتشكل بها أي علم من العلوم.

وقد سبقه عدد من الفلاسفة أمثال فرنسيس **بيكون** ورينيه **ديكارت**، في وضع ملامح لما أصبح يطلق عليه اليوم "المنهج "، وفي هذا العصر نجد الكثير من المناهج على أن هناك بعض التي يمكن القول بأن الاتفاق قد حصل عليها كالمنهج التجريبي، والجدلي، والتاريخي، والاستدلالي، غير أن الناظر إلى المنهج الإسلامي في المعرفة وإثباتها يجد أنه يعتمد على أسلوبين أشار القرآن الكريم إلى تقسيمهما المعرفي، فالمنهج الإسلامي يهدف في النهاية للوصول إلى العلم اليقيني، سواء عن طريق الاستقراء، أو عبر التوثيق والمقابلة والتحليل، متمثلان فيما يلي:[1]

- ما يتعلق بالخبري لا يمكن إثباته إلا بتقديم مستند ذلك من توثيق للنص وإثبات نسبته لقائله، وقد أبدع علماء مصطلح الحديث في هذا الجانب.
- ما يتعلق بالجانب الاستنباطي والاستدلالي وهذا يمكن الوصول فيه إلى اليقين، وهو المنهج الإسلامي فيه إما بالمنهج التجريبي إن كان الأمر محسوسا، وإن كان عقليا مجردا فالقياس بأنواعه.

عموما يعد المنهج في ابسط تعريفاته: " الكيفية التي يستطيع بها الباحث الوصول إلى إجابات مقنعة لأسئلة دراسته واختبار فروضها، بمعنى أنه مجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ هدف". [2]

ومن ضمن المناهج الكبرى كما سبق وأشرنا المنهج التاريخي، فإذا كان التاريخ غير قابل للإعادة، فالمنهج التاريخي بإمكانه أن يسترد أحداث الماضي لدراستها ومحاولة إيجاد تفسير لها في الحاضر للوقوف على قوانين أو نتائج من شأنها أن تحكم سير الظواهر مستقبلا، فمن خلال كتابات **اميل دوركايم**، تعلمنا ان علم الاجتماع سيكون تاريخا او لن يكون، مع

---

[1]- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، **منهج ابن خلدون في دراسة الفرق عرض ونقد**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2014، ص- ص 18- 20.

[2]- موريس أنجرس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية** – تدريبات عملية – تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 466.

الأخذ بعين الاعتبار صعوبة التعامل مع تلك الأحداث النابعة من صعوبة المنهج في حد ذاته.

إذ يعرف المنهج التاريخي لما هو متعارف عليه منهجيا أنه يقوم على: " فهم الحاضر بدراسة خلفيته التاريخية والدور الذي لعبته الأحداث في الماضي ويحاول إيجاد العلاقة بين أحداث الماضي ووقائع الحاضر المشابهة لها وذلك بهدف الوصول إلى تعميمات تفسر أحداث الماضي وتنطبق على الحاضر"[1].

- **ثانيا: فن التدوين التاريخي عند ابن خلدون:**

لقد اهتم ابن خلدون بدراسة آراء وكتب من سبقه من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والفقهاء – عربا وغير عرب – الذين توفرت له مخطوطاتهم، بحيث يرى انه لكي يكون التاريخ صحيحا ولأجل أن يحسن فهمه يجب وضع طريقة أكيدة لتحقيق الوقائع التاريخية وعرض القوانين التي تعمل طبقها النظم الاجتماعية بشكل واضح، فقد اهتم بتحقيق ما نقله من أخبار ووقائع ورفض إيراد الروايات التاريخية ونقلها دون نقد عقلي مجرد .[2]

فالتاريخ من وجهة نظره كما جاء في مقدمته "... إن فن التاريخ من الفنون التي يتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والاغفال، وتتنافس فيه الملوك والاقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأوّل، تنمى فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في

[1]– فوزي غرايبية و آخرون ، **أساليب البحث العلمي** – دار وائل، عمان ، ط3 ، 2002 ، ص. ص 30 .31.

[2]– اسماعيل سراج الدين ، **ابن خلدون انجاز فكري متجدد**، مكتبة الاسكندرية، 2008، (ب. ط)، ص– ص 54– 57.

الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وأن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون طويل وعريض، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم اوبيل، والحق لا يقام سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تملق، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل."[1]

فهو بذلك قد أشار في أكثر من موضع إلى أنه كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولاسيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.[2]

عموما يرى ابن خلدون أن صاحب فن التاريخ يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والإعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها

[1]- محمد محمد تامر، **مقدمة ابن خلدون** – للعلامة عبد الرحمن بن خلدون- ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2005، ص.ص 3. 4.

[2] – درويش الجويدي، **تاريخ ابن خلدون** ، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، 2009، (ب. ط)، ص .ص 5. 6.

وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا وإلا زيّفه واستغنى عنه، وذلك من خلال قوله: "أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالمشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. [1]

- **ثالثا: الأسباب المقتضبة للكذب في الأخبار كما يوردها ابن خلدون:**

لقد أجرى ابن خلدون تلك التحقيقات كلها، وكشف عن أسباب الكذب في الروايات والأخبار مجتمعة، وهو في هذا الإجراء يلتزم بتعاليمه، خاصة أنه يؤصل لعلم جديد غريب على أذهان العلماء والكافة من المتعلمين، وبأنهم فيه مبتدئون كالصغار، ويريد هو أن يقربه إلى عقولهم، ويجعله مستساغًا لمداركهم، وهناك أسباب تجعل الوصف غير صادق، أي تجعل الكذب يتطرق إلى الخبر المروي عن الدول وظواهر الاجتماع فيها، ويمكن أن نجعل أهم تلك الأسباب المقتضبة للكذب في الأخبار على النحو التالي: [2]

- التشيعات للآراء والمذاهب.
- تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك.
- الثقة بالناقلين.

[1]- نفس المرجع، ص 5.

[2]- سامية حسن الساعاتي، **الشك عند ابن خلدون**، مجلة العربي، الكويت، العدد 582 ،2007، ص 54.

- الذهول عن المقاصد.
- ولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان وعدم محاسبة النفس على الخطأ وعدم مطالبتها في الخبر بالاعتدال والصدق.
- القياس والمحاكاة.
- الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما بداخلها من التلبيس والتصنع، وينقلها المخبر كما رآها هي بالتصنع على غير الحق من نفسه.
- الجهل بطبائع الأحوال في العمران.

وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتسبة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذ كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به ومالا يمكن أن يعرض له ، واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه.[1]

- **رابعا: أصول وخصائص المنهج الخلدوني:**

نظرا لمحورية شخصية ابن خلدون فقد تشعبت الاتجاهات في تقييم منهجه وإبراز خصائصه وميزاته، ولعل من أبرز من أفردوا هذه الخصائص **عبد الرزاق قسوم** الذي قدم تلخيصا رائعا لما كتب في هذا المضمار سواء كانوا من المشارقة أمثال علي عبد الواحد الوافي، وساطع الحصري، ونصيف نصار، وعلي الوردي أو مدرسته من المغاربة

[1]- درويش الجويدي، مرجع سبق ذكره، ص 21.

أمثال محمد عابد الجابري، وعلي أومليل، اذ يرى عبد الرزاق قسوم أن أهم ما يتميز به المنهج الخلدوني يرتكز على ثلاث عناصر:

- العامل الديني.
- قوانين التاريخ وقوانين المجتمع " العمران البشري".
- المنهج الفلسفي والتي اعتبرها أيضا بمثابة المنابع للمنهج الخلدوني.

لكن قبل التطرق لهاته الخصائص لابد من الإشارة إلى أقسام العلوم عند ابن خلدون والمندرجة ضمن قسمين:

- القسم الأول: صنف طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره ، ومثل له بالعلوم الحكمية – الطب –والفلسفية، والتي يمكن للإنسان أن يقف عليها بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى مسائلها وموضوعاتها وأنحاء براهينها، ويستطيع أن يميز فيها بين الخطأ والصواب.
- القسم الثاني: العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الوضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل، وهذه العلوم كلها تعود إلى النقل الشرعي والذي أساسه الكتاب والسنة ، اين قال: " وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعلم أحكام الله المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أوبالإلحاق".

من هنا تتضح أصول المنهج الخلدوني في تناوله لمسائل العقيدة، فهو فرق عند تناوله لنشأة العلوم بين النقليات والعقليات فجعل النقليات هي أساس الشرع، هذه الأصول هي المعتمدة لدى علماء أهل السنة والجماعة ، والتي تمثل أساس خصائص منهجه، متمثلة فيما يلي:

1- المعرفة الشرعية: لا شك أن ابن خلدون ينطلق قبل كل شيء من خلفيته الشرعية كونه فقيها مالكيا قبل أي شيء آخر، فهو كما يقول **محمد آيت حمو**: " يتعامل مع كل القضايا انطلاقا من عقيدته المذهبية المالكية، ومن ميولاته السنية الأشعرية"، وليس

المميز هنا معرفته بالعلوم الشرعية، فهذه ميزة يشترك فيها مع غيره وخاصة في تلك العصور، بل الميزة تكمن في توظيف معرفته الشرعية لمعالجة قضايا بعيدة عن الاختصاص الشرعي، وختام هذه الجزئية بما قاله **عبد الرزاق قسوم**: " مهما ألبس ابن خلدون من عباءات إيديولوجية، فستظل العباءة الدينية التي يتوشى بها هي أهم العباءات التي يحلو له أن يزين بها مقولاته، فالقراءة الفلسفية لمنهج ابن خلدون الاجتماعي، تسلمنا إلى حقيقة هي أنه يتخذ من الدين عموما ومن القرآن بصفة أخص، السند الذي يتكئ عليه في صياغة مفاهيمه".[1]

2- قوانين التاريخ والمجتمع "العمران البشري": لقد كان علم العمران البشري أهم ما تميز به ابن خلدون، وفاق فيه أقرانه، فهو المبتكر لهذا العلم، الذي يغوص من خلاله في أعماق التاريخ البشري، ويحاول إيجاد قوانين وقواعد ناظمة لسيره، ولا يسمح بسرد الحوادث هكذا دون تعليل، ومعظم ما ورد في المقدمة يتناول هذا المنهج، فالمنهج الخلدوني أساسا يتميز باستخدامه لهذه القوانين والقواعد التي أرساها في ما أسماه "علم العمران البشري" وقد وصفه بأنه علم مستقل بنفسه لم يسبقه إليه أحد، وجعله غرضا لتأليف مقدمة كتابه التاريخي العبر.[2]

إذن فقانون العمران البشري هو ما تفرد به ابن خلدون، كنظرية تعتمد أساسا على دراسة التاريخ ورصد ظواهره، وتحويل ذلك إلى قواعد يمكن القياس عليها، والابتعاد عن السرد التاريخي البحت، والذي لا يدقق كثيرا في الرواية، والتي قد تكون تحمل في طياتها أسس تناقضها، وقد مثل لها بما ذكره بعض المؤرخين عن عديد بني إسرائيل في التيه وبين مدى الوهم الذي وقعوا فيه - كما أشرنا في العنصر السابق-، مستخدما بذلك قاعدته الشهيرة في علم التاريخ والذي لا يبعد كثيرا عن الفرق من حيث النشأة، ألا وهي قاعدة قياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب، فعلم العمران البشري هو أداة

[1]- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، مرجع سبق ذكره، ص – ص 113 – 118.

[2] – نفس المرجع، ص- ص 118- 120.

لتصحيح الخبر عبر استخدام خصائص الأشياء، من اختلاف في الطباع وتنوع في الأمم، وتباعد في الأماكن والفترات الزمنية، مضافا إلى هذا كله عدم مخالفته للنقل الشرعي أو العلوم النقلية، فدوره عنده يماثل دور النقد الحديث، من حيث فحص الرواية ومدى صلاحيتها للتطبيق بناءا على فهم ودراية بالعصر الذي وقعت فيه، مع استخدام القرائن التي تثبت أو تنفي حصول الحادثة.[1]

هذا وقد دعا إلى تجاوز ظاهر التاريخ والوقوف على باطنه، ودعا إلى رفع التاريخ من مستوى السرد إلى مستوى التعليل والتفسير، وما أسماه ابن خلدون "بباطن التاريخ" ، وبذلك يصبح "موضوع" التاريخ هو العمران أو الاجتماع البشري، مما يبين أنّ مهمة المؤرخ أصبحت تتناول كل "الظاهرات الاجتماعية" للنشاط الإنساني والواقعات السياسية والواقعات الاقتصادية والواقعات الثقافية، وكذلك الجماعات وبنيتها وحالتها النفسية والاجتماعية، وأنّ دوافع ابن خلدون عند إنشائه لهذا العلم كانت منهجية، فقد أراد تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة، وانشاء أداة بواسطتها يمكن للمؤرخين أن يمحّصوا الأخبار التاريخية، وأن يميزوا ما يحتمل الصدق منها وما لا يحتمل الصدق، فهو يقرر ذلك قائلاً:" وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه"، وبالرغم من أنّ ابن خلدون قد قرر أنّ تمحيص الخبر التاريخي هو غرض تأليفه لكتابه الأول الذي يشتمل على علم العمران، إلا أنّ هنالك سبباً أساسياً كان دافعاً له في إنشاء هذا العلم، فقد أراد دراسة مسائل هذا العلم لذاته ليقف على أحوال المجتمع وقوانينه المتحكمة فيه، وهذا شأن جميع العلوم، فالغرض المباشر والذاتي لكل علم هو مجرد الوقوف على طبيعة طائفة من الظواهر والإلمام بقوانينها، وبجانب هذا الغرض المباشر يحقق كل علم أغراضاً أخرى كثيرة غير مباشرة، وفي هذا يشير ابن خلدون قائلاً:" وإذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث

[1]- نفس المرجع، ص- ص46- 51.

لها عمّا يعرض لها من العوارض لذاتها - أي يبحث عن قوانينها - وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه وهذا -أي علم العمران- إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائله في ذاتها وفى اختصاصها شريفة"، وسواء كان الهدف المباشر لعلم العمران هو تمحيص الأخبار وتمييز الصدق من الكذب فيها، أو كان ذلك هدفاً غير مباشر فتبقى حقيقة وهي أنّ شواغل ابن خلدون المنهجية تبدو واضحة لكل متصفح للمقدمة، وأن هواجسه المنهجية هي الأكثر إلحاحاً والأبقى من بين هواجسه المتعددة.[1]

3- **المنهج الفلسفي** : لا بد في هذا العنصر البدء بما يقول به **عبد الرزاق قسوم** في : " أن ابن خلدون لا يغرف في منهجه من ينبوع الدين أو ينبوع القوانين التاريخية فقط ولكنه يستلهم أيضا من المنبع الفلسفي العقلاني، فتجده أحيانا يستخدم المصطلح الأرسطي كما هو الحال بالنسبة للعمران، و من المفهوم الرشدي كما هو الحال بالنسبة للعصبية والمصطلحات السياسية"، ويرجع عبد الرزاق قسوم اهتمام ابن خلدون بالمنهج العقلي وتكوينه فيه إلى عاملين هامين:

- دراسته للعلوم العقلية في سن مبكرة على أستاذه محمد الآبلي.
- مطالعاته الخاصة لمؤلفات المفكرين الإسلاميين كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد.

ويواصل عبد الرزاق قسوم مفصلا منهج ابن خلدون الفلسفي وكيف أنه أدخل تعديلا جديدا على مذهب العقل بقوله: " فيتجلى لنا أن ابن خلدون في اعتماده على المنهج العقلي أدخل على مذهب العقل تعديلا جديدا، هو ما سمي بعنصر التناسب من قوانين العقل وقوانين الكائن على اعتبار أن الوجود أوسع بكثير من العقل مما نتج عنه :

[1] – فيروز عثمان صالح عثمان، **منهجية ابن خلدون واسهاماته الفكرية من خلال مؤلفاته**، مجلة دراسات إسلامية، جامعة الخرطوم، العدد 3، 2011، ص– ص 206– 209.

- الاعتراف بحدود العقل، وهو هنا يلتقي مع "كانط" في قوله بأن :"العقل مقدود على قد الطبيعة"، كما يذهب بأن الإيمان مقدرة تفوق العقل، وبالتالي اللجوء إلى قوة تفوق العقل كالحدس وهو ما ذهب إليه الغزالي.

- الاعتماد على المجال المشروع للعقل من أجل بناء معرفة أكيدة، وبعبارة ابن خلدون نفسه فإن: "العقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها".

ومن هذا يتضح أن ابن خلدون لم يكن يأخذ من مصدر واحد عند صياغته لمنهجه، بل كان يمزج بين الشرع وعلم العمران البشري وبين العلوم العقلية، وإن كان الشرع في النهاية هو الحاكم على رؤيته النهائية.

4- الشك* والتمحيص: هذه الخاصية، فرضها ابن خلدون شرطا على إنتاجه المعرفي، فبعد أن ذكر الأسباب التي تجعل الكذب يتطرق للأخبار كالتشيع للآراء والمذاهب، والثقة في الناقلين، والتقرب لأصحاب الجاه، والأهم من هذا كله الجهل بطبائع الأحوال في العمران، اشترط لمعرفة حقائق الأمور التمحيص في جميع وجوه الخبر، وقد قدم ابن خلدون نماذج تطبيقية على هذا المنهج الذي تميز به، حيث فند قصة العباسة أخت الرشيد، وأنها كانت وراء نكبة البرامكة، مستبعدا ذلك لأسباب شرفية لا تليق بحفيدة عبد الله بن عباس، معيدا السبب الحقيقي للنكبة إلى التنافس على السلطة، أين قال: " ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم، وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب"، كما ينفي ما تناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب بحسب وصفه من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين، ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس، وعلل رفضهم لنسبه بما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه، موضحا مثال ذكره في ما يتعلق بالتمحيص في الأخبار عبر التدقيق في أحصى تفاصيلها تعليقا على ما ذكره بعض المؤرخين كالمسعودي، عن بني إسرائيل ، ويبدو أن هذه الرواية كانت مستفزة لابن خلدون فقام بحشد الأدلة، والقرائن التي تثبت كذبها. [1]

[1] - عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، مرجع سبق ذكره، ص- ص 122- 124 .

لقد جعل ابن خلدون من الشك والتمحيص قاعدة أساسية يصل من خلالها إلى اليقين العلمي، فقد انتقد سابقيه ممن كتبوا في التاريخ، وسجلوا الحوادث على أنهم كانوا :" أبعد ما يكون عن منطق الشك والتمحيص لما ينقلوه"، فجاءت معلوماتهم مزيجاً بين ما يصدقه العقل ويقبله المنطق، وبين ما هو إلى الخرافة والأساطير أقرب، حيث نحا ابن خلدون بعلمه الجديد منحى لم يكن معروفاً عند من سبقه من العلماء، فهو لم يكن شكاكاً، بل كان باحثاً مدققاً ونا قداً محققاً، واهذا فقد لجأ إلى استخدام الشك والتمحيص، في تحقيق موضوع علمه الجديد وبيان مسائله وما يعرض فيه من عوارض ذاتية، وتبدل الأحوال في الأمم والأجيال، وما لذلك كله من العلل والأسباب، وقد عمل على تمحيص المعارف وتخليصها من كل ما هو غير منطقي لا يقبله عقل علمي سليم، بل يشدد على الباحثين بعدم قبول المعارف دون تأمل ويطالب بعرضها على القوانين الصحيحة، فيطمئن حينها إلى صحتها وعلميتها، إذ يقول: "فلا تثقن بما يلقي إليك من ذلك، وتأمل الأخبار وأعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك تمحيصها بأحسن وجه."[1]

مع الإشارة إلى أن ابن خلدون ورث ميراثًا من الشك العقلي، خلفه له اثنان من كبار أئمة الفقه الإسلامي، وهما **أبو حامد الغزالي**، و**ابن تيمية**، حيث شكك الإمام الغزالي في قدرة العقل على الإدراك الحق، إذ إن الإدراك العقلي في نظره معرض للخطأ كالإدراك الحسي تمامًا، كما أنه عاجز مثله عن فهم كثير من الحقائق التي يزخر بها الكون، وأما ابن تيمية فقد شك في صحة الكليات العقلية العامة، التي كان المناطقة قبله يجعلونها مقدمات لأقيستهم المنطقية، ويعتمدون عليها اعتمادًا لا يقبل الجدل، فهو يرى أن هذه المقدمات غير ضرورية وغير بديهية - كما يعتقدون - وأنها أمور نسبية يختلف الناس في تقديرها، ويرى ابن تيمية أيضًا أن الكليات العقلية موجودة في أذهان الناس وليس لها كيان خارجي قائم بذاته، وأن العلم الصحيح هو الذي يستمد حقائقه من الأشياء الجزئية المتعينة بأشخاصها في الخارج وليس من الكليات العقلية الموجودة في

[1]- سامية حسن الساعاتي، مرجع سبق ذكره، ص 55 .

الذهن، ولا يمكن التوصل إلى العلم الصحيح إلا بالانتقال من الجزئي إلى الجزئي (قياس الغائب على الشاهد)، فإذا ما نظمت التجربة هذا القياس، وإذا ما حدده أيضًا مبدأ السببية، فإنه يكون موصلاً إلى اليقين، هذا فضلاً عما ورثه ابن خلدون أيضًا في مجال علم الحديث، من طرق التثبت من صحة ما يروى منه، وقد كتب هو نفسه في ذلك فقال : "ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل المشروط، لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط، وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين، بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك، وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميّزهم فيه واحدًا واحدا..."، الى جانب كون ابن خلدون نفسه مالكي المذهب، والمعروف أن كتاب "الموطأ" للإمام مالك كان يحتوي على ثلاثمائة حديث أو نحوها، وذلك على حد قول ابن خلدون نفسه، الذي كان يقوم بتدريسه لطلابه في مدينة القاهرة. [1]

وفي أمثلة ذلك طريقة الشك التي طبقها على المجال الديموغرافي، فقد استطاع أن يثبت بفعالية كبيرة التزايد السكاني وكيف يتكاثر السكان من جيل إلى جيل، وإن كان ابن خلدون لم يكتشف القوانين الرياضية الديموغرافية كزيادة معدل النمو والوفيات والمواليد وغيرها، إلا أنه اكتشف المبادئ الأساسية للزيادة السكانية، وما كان ليكون هذا لولا استعماله قاعدة الشك والتمحيص فيما جاء عن روايات التاريخ، ليدحض ابن خلدون عن طريق شكه في تضخيم العدد بطريقة إسقاطه على واقع الحال والظروف السائدة وقواعد القتال فيجد أن هذا الإحصاء مكذوب فيه.

[1]- الطيب داودي، **المنهج العلمي في التحليل الاقتصادي الخلدوني**، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 27 ، العدد الرابع، 2011 ، ص.ص57.56 .

5- التخلص من الأحكام المسبقة : وهذا أمر سار عليه في العديد من النتائج التي توصل إليها، وأحيانا يجازف بآراء تخالف السائد في الأوساط التي ينتمي إليها، ولعل أوضح مثال على ذلك إثباته نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليس بناءا على روايات علمية، بل بناءا على نظريته بأن الغلبة التي حصلت للفاطميين، لا تكون إلا لأهل العصبية، وهي أدلة عقلية اعتمد فيها على المنطق والحجة أكثر من اعتماده على الحقائق العلمية في إثبات نسبهم، وضاربا بمثال آخر وهو حال القرمطي وكيف تلاشت دعوته لأنه كان دعيا في نسبه ولا يمتلك العصبية.[1]

عموما ليس من السهل حصر المنهج الخلدوني وميزاته وخاصة أن القراءات في فكره متعددة وأحيانا متضاربة، إلا أن الشيء الذي يسلم به معظم من تناول شخصية ابن خلدون، أنه علامة متميزة في تاريخ الفكر الإسلامي والإنساني معا، فقد أثار المنهج الخلدوني الكثير من القراءات والتفسيرات، وهو بنفسه من بدأ بذكر معالمه عند حديثه عن فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، فوضع ملامح لهذا المنهج، وبين الخصائص التي ينبغي أن يكون عليها الدارس والباحث في التاريخ والأخبار، ومن أهم ما رأى أنه على صاحب الفن أن يكون ملما بها:[2]

- العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات.
- معرفة اختلاف الأمم في الأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال.
- الإحاطة بالواقع أو الحاضر.
- المماثلة بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف "المطابقة ".
- تعليل المتفق منه والمختلف.
- القيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها.
- معرفة كل حادثة وأسباب وقوعها والوقوف على أصول كل خبر.

[1]- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، مرجع سبق ذكره، ص.ص 125.124

[2]- نفس المرجع، ص- ص 102- 104.

- التحاكم إلى القواعد والأصول وقوانين العمران البشري.

- **خامسا: قواعد منهجه العامة:** وضع ابن خلدون قواعد منهجية لتصحيح أخطاء المؤرخين ومعالجة الظواهر العمرانية بصورة موضوعية، متمثلة فيما يلي:

1- التماثل (الطرد): والمراد به هنا تماثل أنماط التفكير الإنساني، وطريقة تحليله وتنزيله على الواقع، وأن الاختلاف عادة يحصل عن طريق مؤثرات أخرى.[1] وملخص هذه القاعدة المنهجية هو أن المجتمعات البشرية تتشابه في بعض الوجوه، وتختلف في وجوه أخرى، والمسبب المباشر لهذا التشابه هو الوحدة العقلية للجنس البشري، ويتمثل التشابه عند ابن خلدون في التقليد الاجتماعي.

2- الاختلاف (التباين): هذه القاعدة من الأسس التي قام عليها المنهج الخلدوني، بمعنى أن طبيعة العمران البشري تقتضي الاختلاف، لذا لا يمكن فصل أي ظاهرة عن سياقها المكاني والزماني، أو تعميم تفسير معين لعدد من الظواهر حصلت في بيئات ومجتمعات مختلفة، .[2]

وواضح هنا أن ابن خلدون انحاز إلى طرح تاريخي مبني على قواعد استقرائية وليس من وجهة السرد التاريخي المحض والذي لا يخلو من الأسطورة، فقانون التباين على عكس قانون التشابه في أن المجتمعات البشرية إذا كانت تتشابه في بعض أمورها فهي تتباين في أمور أخرى، ذلك أن دوام الحال على وضع واحد أمر مستحيل، وقد ربط ابن خلدون التباين بالتغير، إذ أن هذا الأخير يؤدي حتماً إلى ذلك الاختلاف بين المجتمعات البشرية، "وذلك أن أحوال العالم والأمم، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال". [3]

---

[1]- الطيب داودي، مرجع سبق ذكره، ص 45.

[2]- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، مرجع سبق ذكره، ص – ص 104- 106.

[3]- الطيب داودي، مرجع سبق ذكره، ص 45 .

3- السببية (العلة): والمراد بها ربط الحوادث والظواهر بفعل الأسباب والنتائج،[1] فكل باحث يهدف إلى اكتشاف العلاقات بين الحادث وأسبابه، لذا على المؤرخ والباحث إدراك هذا القانون قبل أن يقرر واقعة أو حادثة، وعليه أن يتأكد من قانون السبب والمسبب.[2]

ومما قد يوضح اختلاف المؤرخين السابقين على ابن خلدون اتفاقهم فيما يلي:

- عدم انتقاد ما وصل اليهم من أخبار وروايات والتحقق منها وتمحيصها وتنقيتها من البدع والاباطيل وما ينفيه العقل والنطق.
- عدم اهتمامهم بالبحث عن الاسباب والعلل في تحليلهم لما جاءوا به من احداث وروايات، خاصة تلك التي ادت الى نشوء الدول وانهيارها وبداية العمران وظواهره.

على العكس من هذا سنجد في كتاب العبر لابن خلدون جهدا فكريا واضحا في تجاوز المؤرخين الذين سبقوه، ففي كتابه هذا الذي تناول فيه التاريخ العام منذ بدء الخليقة إلى نهاية القرن الثامن، نلمس بوضوح سعي ابن خلدون للتمييز عمن سبقوه في النقاط الموالية:

1- تعديل خطة إعداد الكتاب، فلم يتبنّى طريقة الترتيب السنوي للأحداث، وقسم تاريخه الى فصول عديدة تكلم في كل منها التاريخ الكامل لدولة او اسرة حاكمة، ولهذا نجد في مصنفه هذا انه تجاوز مناهج الكتابة التاريخية المعتادة عند المؤرخين القدماء .

2- تميز كتابه كذلك بالمعلومات الوافية التي قدمها عن البربر وهم سكان أفريقية الشمالية ولا سيما منذ اتصالهم بالعرب ، وكذلك عن البلدان والممالك المجاورة لهم، وهي تكاد تكون اصدق ما كتب عنهم حتى العصور الحديثة، فقد عاش ابن خلدون بين تلك القبائل فعرفها أكثر من أي مؤرخ عربي آخر، تلك المعايشة التي تبلورت فيما بعد في مناهج البحوث الاجتماعية في العصر الحديث كأحد أهم أساليب الحصول على

[1]- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، مرجع سبق ذكره، ص. ص 106. 107.

[2]- الطيب داودي، مرجع سبق ذكره، ص 45.

المعلومات وفهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها من داخلها وعدم الوقوف عند مرحلة أوحالة الرصد الظاهري. [1]

- **خاتمة:**

تكاد تتفق جل الدراسات على أن ابن خلدون امتاز بمنهج خاص اختطه لنفسه لم يسبق إليه أحد، استطاع فيه الجمع بين السرد التاريخي المحض للوقائع والنقد العقلاني لها، بحيث لا يسلم بصحة الكثير من الروايات، فهو لم يكتف بالنقل عن سابقيه، بل قام بالتمحيص والتفسير والتعليل في إطار قواعد العمران والاجتماع البشري، أين دوّن في هذا الجزء من تاريخه بحوثاً تاريخية استمدها من مشاهداته وقراءاته الخاصة ومن بعض مصادر كانت موجودة في عصره ولم تصل إلينا، ويبدو ذلك على الأخص في حديثه عن دول الإسلام في صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممالك النصرانية في إسبانيا، وتاريخ دولة بنى الأحمر في غرناطة، وقد نوّه بقيمة هذه البحوث وأشاد بفضلها على التاريخ كثير من علماء الغرب في العصر الحديث، فقد استوعب ابن خلدون التراث الإسلامي سواء منه ما تعلق بالجانب التاريخي المحض، أو بالناحية الفكرية، وكانت طريقة تناوله تتسم بالمنهجية الاستقرائية وعمق الاستنتاج، إضافة إلى مقدرته القوية في التحليل والحدس والمقارنة.

قائمة المراجع:

- شمس الدين الكيلاني، **من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي**"الأسطورة- الدين- الايدولوجيا- العلم"، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط1، 1998.
- عكرمة أبو بكر عبد القادر الانصاري، **منهج ابن خلدون في دراسة الفرق عرض ونقد**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2014.

[1]- إسماعيل سراج الدين، مرجع سبق ذكره، ص – ص 50 – 54.

- موريس أنجرس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية** – تدريبات عملية – تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2006.
- فوزي غرايبية وآخرون، **أساليب البحث العلمي** - دار وائل، عمان ، ط3 ، 2002
اسماعيل سراج الدين ، **ابن خلدون انجاز فكري متجدد**، مكتبة الاسكندرية، 2008، (ب. ط).
- محمد محمد تامر، **مقدمة ابن خلدون** - للعلامة عبد الرحمن بن خلدون- ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2005.
- درويش الجويدي، **تاريخ ابن خلدون** ، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، 2009، (ب.ط).
- سامية حسن الساعاتي، **الشك عند ابن خلدون**، مجلة العربي، الكويت، العدد 582 ،2007.
- فيروز عثمان صالح عثمان، **منهجية ابن خلدون واسهاماته الفكرية من خلال مؤلفاته**، مجلة دراسات إسلامية، جامعة الخرطوم، العدد 3، 2011.
- الطيب داودي، **المنهج العلمي في التحليل الاقتصادي الخلدوني**، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 27 ، العدد الرابع، 2011 .